https://youtube.com/channel/UCJbk38R6g5ZusZTorKAXoFA

محمد حسن عباس

https://t.me/droos_abo_alhasan

نُزُولُ القُرآنِ فِي لَيلَةِ القَدرِ

لأبي الحسن

محمد بن حسن بن عباس

شبكة الألوكة
www.alukah.net

نُزُولُ القُرآنِ فِي لَيلَةِ القَدرِ

قَالَ تَعَالَى ذِكرُهُ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١].

وَقَدِ اختُلِفَ فِي كَيفِيَّةِ إِنزَالِهِ مِنَ اللَّوحِ المَحفُوظِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقوَالٍ:

📖 **القَولُ الأَوَّلُ -وَهُوَ الأَصَحُّ والأَشهَرُ-:** أَنَّهُ نَزَلَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيَا لَيلَةَ القَدرِ جُملَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ نَزَلَ بَعدَ ذَلِكَ مُنَجَّمًا فِي ثَلَاثٍ وَعِشرِينَ سَنَةً.

وَقَد وَرَدَ هَذَا المَعنَى عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ بِرِوَايَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ حَاصِلُهَا مَا سَبَقَ.

❁ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «نَزَلَ القُرآنُ كُلُّهُ جُملَةً وَاحِدَةً فِي لَيلَةِ القَدرِ فِي رَمَضَانَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا، فَكَانَ اللهُ إِذَا أَرَادَ أَن يُحدِثَ فِي الأَرضِ شَيئًا أَنزَلَهُ مِنهُ حَتَّى جَمَعَهُ».(١)

❁ وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «نَزَلَ القُرآنُ فِي لَيلَةٍ مِنَ السَّمَاءِ العُلَيَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا جُملَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ فُرِّقَ فِي السِّنِينَ، وَتَلَا ابنُ عَبَّاسٍ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الوَاقِعَة: ٧٥] قَالَ: نَزَلَ مُتَفَرِّقًا».(٢) وَالنُّجُومُ: القُرآنُ.

❁ وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، فِي قَولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[القدر:١] قَالَ: «نَزَلَ القُرآنُ جُملَةً وَاحِدَةً فِي لَيلَةِ القَدرِ، وَكَانَ اللهُ ﷻ يُنَزِّلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعضَهُ فِي أَثَرِ بَعضٍ، قَالُوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفُرقَان: ٣٢]».(٣)

---

(١) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هَجَر» (٢٤/ ٥٤٢).

(٢) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هَجَر» (٢٤/ ٥٤٢).

(٣) «السُّنَنُ الكُبرَى لِلنَّسَائِيِّ» (١١٦٢٥)، «المُستَدرَكُ عَلَى الصَّحِيحَينِ لِلحَاكِمِ» (٢/ ٢٤٢).

وَأَخرَجَهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ مِن هَذَا الوَجهِ وَفِي آخِرِهِ، فَكَانَ المُشرِكُونَ إِذَا أَحدَثُوا شَيئًا أَحدَثَ اللهُ لَهُم جَوَابًا.

❁ وَعَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «فُصِلَ القُرآنُ مِنَ الذِّكرِ فَوُضِعَ فِي بَيتِ العِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنيَا فَجَعَلَ جِبرِيلُ عليه السلام يَنزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يُرَتِّلُهُ تَرتِيلًا» قَالَ سُفيَانُ: «خَمسَ آيَاتٍ، وَنَحوَهَا».(١)

❁ قَالَ السُّيُوطِيُّ: أَسَانِيدُهَا كُلُّهَا صَحِيحَةٌ.(٢)

(١) «السُّنَنُ الكُبرَى لِلنَّسَائِيِّ» (٧٩٣٧)، «المُستَدرَكُ عَلَى الصَّحِيحَينِ لِلحَاكِمِ» (٢/ ٢٤٢)

(٢) «الإِتقَانُ فِي عُلُومِ القُرآنِ» (١/ ١٤٧)

❁ وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا- وَسَأَلَهُ عَطِيَّةُ بنُ الأَسوَدِ، قَالَ: إِنَّهُ وَقَعَ فِي قَلبِي الشَّكُّ: قَولُ اللهِ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] وَقَولُهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القَدر: ١] وَقَولُهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدُّخَان: ٣]، وَقَد أُنزِلَ فِي رَمَضَانَ وَشَوَّالَ وَذِي القِعدَةِ وَذِي الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمِ وَشَهرَي رَبِيعٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ أَنزَلَ القُرآنَ فِي رَمَضَانَ فِي لَيلَةِ القَدرِ فِي لَيلَةٍ مُبَارَكَةٍ جُملَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ أُنزِلَ بَعدَ ذَلِكَ عَلَى مَوَاقِعِ النُّجُومِ رِسلًا فِي الشُّهُورِ وَالأَيَّامِ».(٣)

(٣) «مُختَصَرُ قِيَامِ اللَّيلِ وَقِيَامِ رَمَضَانَ وَكِتَابِ الوِترِ» (ص٢٤٩).

❁ قَالَ أَبُو شَامَةَ: يُرِيدُ: أُنزِلَ فِي رَمَضَانَ فِي لَيلَةِ القَدرِ جُملَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ أُنزِلَ عَلَى مَا وَقَعَ مُفَرَّقًا يَتلُو بَعضُهُ بَعضًا عَلَى تُؤَدَةٍ وَرِفقٍ.(٤)

❁ وَعَنِ الشَّعبِيِّ، قَالَ: «بَلَغَنَا أَنَّ القُرآنَ نَزَلَ جُملَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا».(٥)

❁ أَقوَالُ المُفَسِّرِينَ:

❁ قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ تَعَالَى ذِكرُهُ: إِنَّا أَنزَلنَا هَذَا القُرآنَ جُملَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا فِي لَيلَةِ القَدرِ، وَهِيَ لَيلَةُ الحُكمِ

(٤) «الإِتقَانُ فِي عُلُومِ القُرآنِ» (١/ ١٤٨).

(٥) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هَجَر» (٢٤/ ٥٤٢).

الَّتِي يَقْضِي اللهُ فِيهَا قَضَاءَ السَّنَةِ.(١)

❁ وَقَالَ الثَّعلَبِيُّ: قَولُهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١] يَعنِي: القُرآن، جُملَةٌ وَاحِدَةٌ فِي لَيلَةِ القَدرِ مِنَ اللَّوحِ المَحفُوظِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيَا، فَوَضَعَهُ فِي بَيتِ العِزَّةِ، وَأَملَاهُ جِبرِيلُ عَلَى السَّفَرَةِ، ثُمَّ كَانَ جِبرِيلُ يَتَنَزَّلُ بِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ نُجُومًا، فَكَانَ بَينَ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ثَلَاثٌ وَعِشرُونَ سَنَةً.(٢)

❁ وَقَالَ الوَاحِدِيُّ وَالرَّازِيُّ: أَجمَعَ المُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ المُرَادَ بِهَذِهِ الآيَةِ: إِنَّا أَنزَلنَا القُرآنَ فِي لَيلَةِ القَدرِ.(٣)

وَالحَقُّ أَنَّ فِيهِ خِلَافًا وَلَكِنَّهُ ضَعِيفٌ.

📖 القَولُ الثَّانِي: أَنَّهُ ابتُدِئَ إِنزَالُهُ فِي لَيلَةِ القَدرِ، ثُمَّ نَزَلَ بَعدَ ذَلِكَ مُنَجَّمًا فِي أَوقَاتٍ مُختَلِفَةٍ مِن سَائِرِ الأَوقَاتِ، وَبِهِ قَالَ الشَّعبِيُّ.

❁ عَنِ الشَّعبِيِّ، قَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى ابتَدَأَ بِإِنزَالِ القُرآنِ فِي لَيلَةِ القَدرِ.(٤)

وَلَا تَعَارُضَ بَينَ هَذَا القَولِ وَالقَولِ الأَوَّلِ.

📖 القَولُ الثَّالِثُ: قَالَ الرَّازِيُّ: يُحتَمَلُ أَنَّهُ كَانَ يُنزِلُ فِي كُلِّ لَيلَةٍ قَدرَ مَا يَحتَاجُ النَّاسُ إِلَى إِنزَالِهِ إِلَى مِثلِهَا مِنَ اللَّوحِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا ثُمَّ تَوَقَّفَ، هَل هَذَا أَولَى أَوِ الأَوَّلُ؟!

❁ وَقَالَ ابنُ كَثِيرٍ: وَهَذَا الَّذِي جَعَلَهُ احتِمَالًا نَقَلَهُ القُرطُبِيُّ عَن مُقَاتِلِ بنِ حَيَّانَ، وَحَكَى الإِجمَاعَ عَلَى أَنَّهُ نَزَلَ جُملَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوحِ المَحفُوظِ إِلَى بَيتِ العِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنيَا.(٥)

❁ وَقَالَ السُّيُوطِيُّ: وَمِمَّن قَالَ بِقَولِ مُقَاتِلٍ: الحَلِيمِيُّ وَالمَاوَرْدِيُّ، وَيُوَافِقُهُ قَولُ

---

(١) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هَجَر» (٢٤/ ٥٤٢)

(٢) «تَفسِيرُ الثَّعلَبِيِّ = الكَشفُ وَالبَيَانُ عَن تَفسِيرِ القُرآنِ ط دَارُ التَّفسِيرِ» (٣٠/ ٥٩)

(٣) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٤/ ١٥٩)، «تَفسِيرُ الرَّازِيِّ = مَفَاتِيحُ الغَيبِ أَوِ التَّفسِيرُ الكَبِيرُ» (٣٢/ ٢٢٨)

(٤) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هَجَر» (٢٤/ ٥٤٢)، «النُّكَتُ وَالعُيُونُ» (٤/ ٤٨٩)

(٥) «تَفسِيرُ ابنِ كَثِيرٍ ت سَلَامَة» (١/ ٥٠٢)

ابنِ شِهَابٍ: آخِرُ القُرآنِ عَهدًا بِالعَرشِ آيَةُ الدَّينِ.(١)

وَانظُر أَيضًا: تَفسِيرَ مُقَاتِلِ بنِ سُلَيمَانَ لِسُورَةِ القَدرِ.

❁ قَالَ ابنُ حَجَرٍ فِي شَرحِ البُخَارِيِّ:

وَالأَوَّلُ هُوَ الصَّحِيحُ المُعتَمَدُ.(٢)

❁ عَن وَاثِلَةَ بنِ الأَسقَعِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «نَزَلَت صُحُفُ إِبرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيلَةٍ مِن شَهرِ رَمَضَانَ، وَنَزَلَتِ التَّورَاةُ عَلَى مُوسَى فِي سِتٍّ مِن شَهرِ رَمَضَانَ وَنَزَلَ الزَّبُورُ عَلَى دَاوُدَ فِي اثنَتَي عَشرَةَ

(١) «الإِتقَانُ فِي عُلُومِ القُرآنِ» (١/ ١٤٨)

(٢) «فَتحُ البَارِي لِابنِ حَجَرٍ» (٩/ ٥).

مِن شَهرِ رَمَضَانَ، وَنَزَلَ الإِنجِيلُ عَلَى عِيسَى فِي ثَمَانِي عَشرَةَ مِن شَهرِ رَمَضَانَ، وَأَنزَلَ اللهُ الفُرقَانَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَربَعٍ وَعِشرِينَ مِن شَهرِ رَمَضَانَ».(٣)

❁ قَالَ ابنُ حَجَرٍ: هَذَا الحَدِيثُ مُطَابِقٌ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] وَلِقَولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القَدر: ١]، فَيُحتَمَلُ أَن يَكُونَ لَيلَةُ القَدرِ فِي تِلكَ السَّنَةِ كَانَت تِلكَ اللَّيلَةَ فَأُنزِلَ فِيهَا جُملَةً إِلَى سَمَاءِ الدُّنيَا، ثُمَّ

(٣) «فَضَائِلُ القُرآنِ لِلقَاسِمِ بنِ سَلاَّمٍ» (ص٣٦٨)، «المُعجَمُ الأَوسَطُ» (٤/ ١١١)، «لَم يَروِ هَذَا الحَدِيثَ عَن قَتَادَةَ، إِلَّا عِمرَانُ القَطَّانُ، وَلَا يُروَى عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا بِهَذَا الإِسنَادِ».

أُنزِلَ فِي اليَومِ الرَّابِعِ وَالعِشرِينَ إِلَى الأَرضِ أَوَّلُ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ٤].(٤)

وَالخُلَاصَةُ: أَنَّ القُرآنَ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا فِي لَيلَةِ القَدرِ، وَابتَدَأَ إِنزَالُهُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي لَيلَةِ القَدرِ.

(٤) «فَتحُ البَارِي لِابنِ حَجَرٍ» (٩/ ٥).

❁ تَنبيهَاتٌ:

❁ قِيلَ: الحِكمَةُ فِي إِنزَالِ القُرآنِ جُملَةً إِلَى السَّمَاءِ تَفخِيمُ أَمرِهِ وَأَمرِ مَن نَزَلَ عَلَيهِ، وَذَلِكَ بِإِعلَامِ سُكَّانِ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ أَنَّ هَذَا آخِرُ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ عَلَى خَاتَمِ الرُّسُلِ لِأَشرَفِ الأُمَمِ، قَد قَرَّبنَاهُ إِلَيهِم لِنُنَزِّلَهُ عَلَيهِم، وَلَم يَنزِل إِلَى الأَرضِ جُملَةً كَسَائِرِ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ قَبلَهُ.(١)

❁ وَقَالَ الحَكِيمُ التِّرمِذِيُّ: أُنزِلَ القُرآنُ جُملَةً وَاحِدَةً إِلَى سَمَاءِ الدُّنيَا؛ تَسلِيمًا مِنهُ لِلأُمَّةِ مَا كَانَ أَبرَزَ لَهُم مِنَ الحَظِّ بِمَبعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وَذَلِكَ أَنَّ بَعثَتَهُ كَانَت رَحمَةً، فَلَمَّا خَرَجَتِ الرَّحمَةُ بِفَتحِ البَابِ؛ جَاءَت بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِالقُرآنِ، فَوُضِعَ القُرآنُ بِبَيتِ العِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنيَا، وَوُضِعَتِ النُّبُوَّةُ فِي قَلبِ مُحَمَّدٍ، وَجَاءَ جِبرِيلُ بِالرِّسَالَةِ ثُمَّ الوَحيِ، كَأَنَّهُ أَرَادَ تَعَالَى أَنَّ يُسَلِّمَ هَذِهِ الرَّحمَةَ الَّتِي كَانَت حَظَّ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ اللهِ إِلَى الأُمَّةِ.(٢)

❁ وَقَالَ السَّخَاوِيُّ فِي «جَمَالُ القُرَّاءِ»: فِي نُزُولِهِ إِلَى السَّمَاءِ جُملَةً تَكرِيمُ بَنِي آدَمَ، وَتَعظِيمُ شَأنِهِم عِندَ المَلَائِكَةِ، وَتَعرِيفُهُم عِنَايَةَ اللهِ بِهِم وَرَحمَتَهُ لَهُم.

❁ وَقَالَ: وَفِيهِ أَيضًا التَّسوِيَةُ بَينَ نَبِيِّنَا وَبَينَ مُوسَى عليه السلام فِي إِنزَالِهِ كِتَابَهُ جُملَةً، وَالتَّفضِيلُ لِمُحَمَّدٍ فِي إِنزَالِهِ عَلَيهِ مُنَجَّمًا لِيَحفَظَهُ.(٣)

❁ قَالَ أَبُو شَامَةَ أَيضًا: الظَّاهِرُ أَنَّ نُزُولَهُ جُملَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا قَبلَ ظُهُورِ نُبُوَّتِهِ ﷺ.

❁ قَالَ: وَيُحتَمَلُ أَن يَكُونَ بَعدَهَا.

❁ وَقَالَ السُّيُوطِيُّ: الظَّاهِرُ هُوَ الثَّانِي، وَسِيَاقُ الآثَارِ السَّابِقَةِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ صَرِيحٌ فِيهِ.(٤)

(١) «المُرشِدُ الوَجِيزُ إِلَى عُلُومٍ تَتَعَلَّقُ بِالكِتَابِ العَزِيزِ» (١/ ٢٤)

(٢) «المُرشِدُ الوَجِيزُ إِلَى عُلُومٍ تَتَعَلَّقُ بِالكِتَابِ العَزِيزِ» (١/ ٢٦)، «الإِتقَانُ فِي عُلُومِ القُرآنِ» (١/ ١٤٩)

(٣) «جَمَالُ القُرَّاءِ وَكَمَالُ الإِقرَاءِ» (ص٦٧)

(٤) «الإِتقَانُ فِي عُلُومِ القُرآنِ» (١/ ١٥٠)

إِن قِيلَ: مَا السِّرُّ فِي نُزُولِهِ مُنَجَّمًا؟ وَهَلَّا نَزَلَ كَسَائِرِ الكُتُبِ جُملَةً؟

❁ قَالَ أَبُو شَامَةَ: هَذَا سُؤَالٌ قَد تَوَلَّى اللهُ جَوَابَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: ٣٢]، يَعنُونَ: كَمَا أُنزِلَ عَلَى مَن قَبلَهُ مِنَ الرُّسُلِ.

فَأَجَابَهُم تَعَالَى بِقَولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] أَي: أَنزَلنَاهُ كَذَلِكَ مُفَرَّقًا: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: ٣٢] أَي: لِنُقَوِّيَ بِهِ قَلبَكَ؛ فَإِنَّ الوَحيَ إِذَا كَانَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ، كَانَ أَقوَى بِالقَلبِ وَأَشَدَّ عِنَايَةً بِالمُرسَلِ إِلَيهِ، وَيَستَلزِمُ ذَلِكَ كَثرَةَ نُزُولِ المَلَكِ إِلَيهِ، وَتَجَدُّدَ العَهدِ بِهِ وَبِمَا مَعَهُ مِنَ الرِّسَالَةِ الوَارِدَةِ مِن ذَلِكَ الجَنَابِ العَزِيزِ، فَيَحدُثُ لَهُ مِنَ السُّرُورِ مَا تَقصُرُ عَنهُ العِبَارَةُ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَجوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ؛ لِكَثرَةِ لِقَائِهِ جِبرِيلَ.

❁ وَقِيلَ: مَعنَى ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] أَي: لِنَحفَظَهُ؛ فَإِنَّهُ ﷺ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقرَأُ وَلَا يَكتُبُ، فَفُرِّقَ عَلَيهِ لِيَثبُتَ عِندَهُ حِفظُهُ، بِخِلَافِ غَيرِهِ مِنَ الأَنبِيَاءِ؛ فَإِنَّهُ كَانَ كَاتِبًا قَارِئًا فَيُمكِنُهُ حِفظُ الجَمِيعِ.

❁ وَقَالَ غَيرُهُ: إِنَّمَا لَم يَنزِل جُملَةً وَاحِدَةً؛ لِأَنَّ مِنهُ النَّاسِخَ وَالمَنسُوخَ، وَلَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا أُنزِلَ مُفَرَّقًا، وَمِنهُ مَا هُوَ جَوَابٌ لِسُؤَالٍ، وَمَا هُوَ إِنكَارٌ عَلَى قَولٍ قِيلَ أَو فِعلٍ فُعِلَ، وَقَد تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي قَولِ ابنِ عَبَّاسٍ: وَنَزَّلَهُ جِبرِيلُ بِجَوَابِ كَلَامِ العِبَادِ وَأَعمَالِهِم، وَفَسَّرَ بِهِ قَولَهُ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفرقان: ٣٣] أَخرَجَهُ عَنهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ.

فَالحَاصِلُ أَنَّ الآيَةَ تَضَمَّنَت حِكمَتَينِ لِإِنزَالِهِ مُفَرَّقًا.[1]

(١) «الإِتقَانُ فِي عُلُومِ القُرآنِ» (١/ ١٤٩)

❁ تَذنِيبٌ:[1]

❁ قَالَ السُّيُوطِيُّ: مَا تَقَدَّمَ فِي كَلَامِ هَؤُلَاءِ -مِن أَنَّ سَائِرَ الكُتُبِ أُنزِلَت جُملَةً- هُوَ مَشهُورٌ فِي كَلَامِ العُلَمَاءِ وَعَلَى أَلسِنَتِهِم، حَتَّى كَادَ يَكُونُ إِجمَاعًا.

❁ أَخرَجَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ مِن طَرِيقِ سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَتِ اليَهُودُ: «يَا أَبَا القَاسِمِ، لَولَا أُنزِلَ هَذَا القُرآنُ جُملَةً وَاحِدَةً كَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ عَلَى مُوسَى» فَنَزَلَت.

وَأَخرَجَهُ مِن وَجهٍ آخَرَ عَنهُ بِلَفظِ: «قَالَ المُشرِكُونَ» وَأَخرَجَ نَحوَهُ عَن قَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ.[2]

❁ فَإِن قُلتَ: لَيسَ فِي القُرآنِ التَّصرِيحُ بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى تَقدِيرِ ثُبُوتِهِ قَولُ الكُفَّارِ!

❁ قَالَ السُّيُوطِيُّ: سُكُوتُهُ تَعَالَى عَنِ الرَّدِّ عَلَيهِم فِي ذَلِكَ وَعُدُولُهُ إِلَى بَيَانِ حِكمَتِهِ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّتِهِ، وَلَو كَانَتِ الكُتُبُ كُلُّهَا نَزَلَت مُفَرَّقَةً؛ لَكَانَ يَكفِي فِي الرَّدِّ عَلَيهِم أَن يَقُولَ: إِنَّ ذَلِكَ سُنَّةُ اللهِ فِي الكُتُبِ الَّتِي أَنزَلَهَا عَلَى الرُّسُلِ السَّابِقَةِ، كَمَا أَجَابَ بِمِثلِ ذَلِكَ قَولَهُم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] فَقَالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وَقَولِهِم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤] فَقَالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٣] وَقَولِهِم: كَيفَ يَكُونُ رَسُولًا وَلَا هَمَّ لَهُ إِلَّا النِّسَاءُ؟!

❁ فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨] إِلَى غَيرِ ذَلِكَ.

(١) التَّذنِيبُ مَعنَاهُ: تَتِمَّةٌ لِلمَسأَلَةِ، وَلَيسَ فَرعًا مِنهَا.

(٢) «تَفسِيرُ ابنِ أَبِي حَاتِمٍ» (٨/ ٢٦٨٩)

وَمِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى ذَلِكَ أَيضًا قَولُهُ تَعَالَى فِي إِنزَالِ التَّورَاةِ عَلَى مُوسَى يَومَ الصَّاعِقَةِ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤]، ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ [الأعراف:١٥٠]، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤]، ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف:١٧٣] فَهَذِهِ الآيَاتُ كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى إِتيَانِهِ التَّورَاةَ جُملَةً.

❁ وَأَخرَجَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ مِن طَرِيقِ سَعِيدِ ابنِ جُبَيرٍ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَعطَى اللهُ مُوسَى التَّورَاةَ فِي سَبعَةِ أَلوَاحٍ مِن زَبَرجَدٍ، فِيهَا تِبيَانٌ لِكُلِّ شَيءٍ، وَمَوعِظَةُ التَّورَاةِ مَكتُوبَةً، فَلَمَّا جَاءَ بِهَا فَرَأَى بَنِي إِسرَائِيلَ عَكَفُوا عَلَى العِجلِ، رَمَى بِالتَّورَاةِ مِن يَدَيهِ، فَتَحَطَّمَت وَأَقبَلَ عَلَى هَارُونَ فَأَخَذَ بِرَأسِهِ، فَرَفَعَ اللهُ مِنهَا سِتَّةَ أَسبَاعٍ، وَبَقِيَ سُبعٌ.(١)

❁ وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَخَذَ مُوسَى الأَلوَاحَ بَعدَمَا سَكَتَ عَنهُ الغَضَبُ، فَأَمَرَهُم بِالَّذِي أَمَرَ اللهُ أَن يُبَلِّغَهُم مِنَ الوَظَائِفِ، فَثَقُلَت عَلَيهِم وَأَبَوا أَن يُقِرُّوا بِهَا، حَتَّى نَتَقَ اللهُ عَلَيهِمُ الجَبَلَ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، وَدَنَا مِنهُم حَتَّى خَافُوا أَن يَقَعَ عَلَيهِم فَأَقَرُّوا بِهَا.(٢)

❁ وَأَخرَجَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَن ثَابِتِ ابنِ الحَجَّاجِ قَالَ: جَاءَتهُمُ التَّورَاةُ جُملَةً وَاحِدَةً فَكَبُرَ عَلَيهِم، فَأَبَوا أَن يَأخُذُوهَا، حَتَّى ظَلَّلَ اللهُ عَلَيهِمُ الجَبَلَ فَأَخَذُوهَا عِندَ ذَلِكَ.(٣)

فَهَذِهِ آثَارٌ صَحِيحَةٌ صَرِيحَةٌ فِي إِنزَالِ التَّورَاةِ جُملَةً، وَيُؤخَذُ مِنَ الأَثَرِ الأَخِيرِ مِنهَا حِكمَةٌ أُخرَى لِإِنزَالِ القُرآنِ مُفَرَّقًا؛ فَإِنَّهُ أَدعَى إِلَى قَبُولِهِ إِذَا نَزَلَ عَلَى التَّدرِيجِ،

(١) «تَفسِيرُ ابنِ أَبِي حَاتِمٍ» (٥/ ١٥٦٣)

(٢) «تَفسِيرُ ابنِ أَبِي حَاتِمٍ» (٥/ ١٦١٠)

(٣) «تَفسِيرُ ابنِ أَبِي حَاتِمٍ» (٥/ ١٦١٠)

بِخِلَافِ مَا لَو نَزَلَ جُملَةً وَاحِدَةً؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَنفِرُ مِن قَبُولِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لِكَثرَةِ مَا فِيهِ مِنَ الفَرَائِضِ وَالمَنَاهِي.(١)

وَيُوَضِّحُ ذَلِكَ مَا أَخرَجَهُ البُخَارِيُّ عَن عَائِشَةَ، قَالَت: إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسلَامِ نَزَلَ الحَلَالُ وَالحَرَامُ، وَلَو نَزَلَ أَوَّلَ شَيءٍ: «لَا تَشرَبُوا الخَمرَ» لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الخَمرَ أَبَدًا، وَلَو نَزَلَ: «لَا تَزنُوا» لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا.(٢)

(١) «الإِتقَانُ فِي عُلُومِ القُرآنِ» (١/ ١٥٥)، «مُعتَرَكُ الأَقرَانِ فِي إِعجَازِ القُرآنِ» (٢/ ٢٦١)

(٢) «صَحِيحُ البُخَارِيِّ» (٤٩٩٣)

❁ فَرعٌ:

الَّذِي استُقرِئَ مِنَ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَغَيرِهَا أَنَّ القُرآنَ كَانَ يَنزِلُ بِحَسَبِ الحَاجَةِ خَمسَ آيَاتٍ وَعَشرًا وَأَكثَرَ وَأَقَلَّ، وَقَد صَحَّ نُزُولُ الآيَاتِ العَشرِ فِي قِصَّةِ الإِفكِ جُملَةً، وَصَحَّ نُزُولُ عَشرِ آيَاتٍ مِن أَوَّلِ «المُؤمِنُون» جُملَةً، وَصَحَّ نُزُولُ: ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء:٩٥] وَحدَهَا وَهِيَ بَعضُ آيَةٍ وَكَذَا قَولُهُ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ﴾ [التوبة:٢٨] إِلَى آخِرِ الآيَةِ نَزَلَت بَعدَ نُزُولِ أَوَّلِ الآيَةِ.(٣)

❁ عَن عِكرِمَةَ، فِي قَولِهِ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الوَاقِعَة: ٧٥] قَالَ: «أَنزَلَ اللهُ القُرآنَ نُجُومًا ثَلَاثَ آيَاتٍ وَأَربَعَ آيَاتٍ وَخَمسَ آيَاتٍ».(٤)

❁ وَأَخرَجَهُ ابنُ عَسَاكِرَ مِن طَرِيقِ أَبِي نَضرَةَ، قَالَ كَانَ أَبُو سَعِيدٍ الخُدرِيُّ يُعَلِّمُنَا القُرآنَ خَمسَ آيَاتٍ بِالغَدَاةِ وَخَمسَ آيَاتٍ بِالعَشِيِّ، وَيُخبِرُ أَنَّ جِبرِيلَ نَزَلَ بِالقُرآنِ خَمسَ آيَاتٍ خَمسَ آيَاتٍ.(٥)

❁ وَقَالَ أَبُو العَالِيَةِ: تَعَلَّمُوا القُرآنَ خَمسَ آيَاتٍ خَمسَ آيَاتٍ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(٣) «الإِتقَانُ فِي عُلُومِ القُرآنِ» (١/ ١٥٥)

(٤) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هَجَر» (٢٢/ ٣٦٠)

(٥) أَخرَجَهُ ابنُ عَسَاكِر ٢٠/ ٣٩١.

كَانَ يَأْخُذُهُ مِن جِبرِيلَ خَمسًا خَمسًا.[1]

❁ فرع:

❁ عَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالوَحيِ، سَمِعَ أَهلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلصَلَةً كَجَرِّ السِّلسِلَةِ عَلَى الصَّفَا، فَيُصعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأتِيَهُم جِبرِيلُ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُم جِبرِيلُ فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم» قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا جِبرِيلُ، مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: الحَقَّ، فَيَقُولُونَ: الحَقَّ، الحَقَّ».[2]

❁ قَالَ الجُوَينِيُّ: كَلَامُ اللهِ المُنَزَّلُ قِسمَانِ:

❁ قِسمٌ قَالَ: قَالَ اللهُ لِجِبرِيلَ: قُل لِلنَّبِيِّ الَّذِي أَنتَ مُرسَلٌ إِلَيهِ: إِنَّ اللهَ يَقُولُ: افعَل كَذَا وَكَذَا، وَأَمَرَ بِكَذَا وَكَذَا، فَفَهِمَ جِبرِيلُ مَا قَالَهُ رَبُّهُ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَى ذَلِكَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ لَهُ مَا قَالَهُ رَبُّهُ، وَلَم تَكُنِ العِبَارَةُ تِلكَ العِبَارَةَ، كَمَا يَقُولُ المَلِكُ لِمَن يَثِقُ بِهِ: قُل لِفُلَانٍ: يَقُولُ لَكَ المَلِكُ: اجتَهِد فِي الخِدمَةِ، وَاجمَع جُندَكَ لِلقِتَالِ، فَإِن قَالَ الرَّسُولُ: يَقُولُ المَلِكُ: «لَا تَتَهَاوَن فِي خِدمَتِي، وَلَا تَترُكِ الجُندَ تَتَفَرَّقُ، وَحُثَّهُم عَلَى المُقَاتَلَةِ» لَا يُنسَبُ إِلَى كَذِبٍ وَلَا تَقصِيرٍ فِي أَدَاءِ الرِّسَالَةِ.

❁ وَقِسمٌ آخَرُ قَالَ: قَالَ اللهُ لِجِبرِيلَ: اقرَأ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ هَذَا الكِتَابَ، فَنَزَلَ جِبرِيلُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ مِن غَيرِ تَغيِيرٍ، كَمَا يَكتُبُ المَلِكُ كِتَابًا وَيُسَلِّمُهُ إِلَى أَمِينٍ، وَيَقُولُ: اقرَأهُ عَلَى فُلَانٍ؛ فَهُوَ لَا يُغَيِّرُ مِنهُ كَلِمَةً وَلَا حَرفًا. انتَهَى

❁ قَالَ السُّيُوطِيُّ: القُرآنُ هُوَ القِسمُ الثَّانِي، وَالقِسمُ الأَوَّلُ هُوَ السُّنَّةُ، كَمَا وَرَدَ أَنَّ جِبرِيلَ كَانَ يَنزِلُ بِالسُّنَّةِ كَمَا يَنزِلُ بِالقُرآنِ.

(١) «شعب الإيمان» (٣/ ٣٤٦)

(٢) «سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ ت الأَرنَؤُوط» (٤٧٣٨)، «البُخَارِيُّ مُعَلَّقًا» (٩/ ١٤١)

وَمِن هُنَا جَازَ رِوَايَةُ السُّنَّةِ بِالمَعنَى؛ لِأَنَّ جِبرِيلَ أَدَّاهُ بِالمَعنَى، وَلَم تَجُز القِرَاءَةُ بِالمَعنَى؛ لِأَنَّ جِبرِيلَ أَدَّاهُ بِاللَّفظِ، وَلَم يُبح لَهُ إِيحَاءَهُ بِالمَعنَى، وَالسِّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ المَقصُودَ مِنهُ التَّعَبُّدُ بِلَفظِهِ وَالإِعجَازُ بِهِ، فَلَا يَقدِرُ أَحَدٌ أَن يَأتِيَ بِلَفظٍ يَقُومُ مَقَامَهُ.

وَأَنَّ تَحتَ كُلِّ حَرفٍ مِنهُ مَعَانٍ لَا يُحَاطُ بِهَا كَثرَةً، فَلَا يَقدِرُ أَحَدٌ أَن يَأتِيَ بَدَلَهُ بِمَا يَشتَمِلُ عَلَيهِ، وَالتَّخفِيفُ عَلَى الأُمَّةِ؛ حَيثُ جَعَلَ المُنَزَّلَ إِلَيهِم عَلَى قِسمَينِ:

قِسمٌ يَروُونَهُ بِلَفظِهِ المُوحَى بِهِ، وَقِسمٌ يَروُونَهُ بِالمَعنَى.

وَلَو جُعِلَ كُلُّهُ مِمَّا يُروَى بِاللَّفظِ لَشَقَّ، أَو بِالمَعنَى لَم يُؤمَنِ التَّبدِيلُ وَالتَّحرِيفُ، فَتَأَمَّل!

وَقَد رَأَيتُ عَنِ السَّلَفِ مَا يُعَضِّدُ كَلَامَ الجُوَينِيِّ.

❁ أَخرَجَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ مِن طَرِيقِ عَقِيلٍ، عَنِ الزُّهرِيِّ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الوَحيِ، فَقَالَ: الوَحيُ: مَا يُوحِي اللهُ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الأَنبِيَاءِ فَيُثبِتُهُ فِي قَلبِهِ فَيَتَكَلَّمُ بِهِ وَيَكتُبُهُ، وَهُوَ كَلَامُ اللهِ، وَمِنهُ مَا لَا يَتَكَلَّمُ بِهِ وَلَا يَكتُبُهُ لِأَحَدٍ وَلَا يَأمُرُ بِكِتَابَتِهِ، وَلَكِنَّهُ يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ حَدِيثًا، وَيُبَيِّنُ لَهُم أَنَّ اللهَ أَمَرَهُ أَن يُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَيُبَلِّغَهُم إِيَّاهُ.(١)

(١) «الإِتقَانُ فِي عُلُومِ القُرآنِ» (١/ ١٦٠)

❁ فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ:

❁ إِن قُلتَ: قَد جَاءَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا- وَغَيرِهِ مِنَ السَّلَفِ فِي تَفسِيرِ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القَدر:١] أُنزِلَ إِلَى بَيتِ العِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنيَا، ثُمَّ أَنزَلَهُ بَعدَ ذَلِكَ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا بِحَسَبِ الحَوَادِثِ، قَد أَخبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ مَكتُوبٌ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ قَبلَ نُزُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البُرُوج: ٢١، ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾

[الواقعة: ٧٧ - ٧٩]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١١ - ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزُّخرُف: ٤]؛ فالجَوابُ: أنَّ كَونَ القُرآنِ العَظِيمِ مَكتُوبًا فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ وَفِي الصُّحُفِ المُطَهَّرَةِ بِأَيدِي المَلَائِكَةِ الكِرَامِ لَا يُنَافِي أَن يَكُونَ جِبرِيلُ نَزَلَ بِهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى، سَوَاءٌ كَتَبَهُ اللهُ قَبلَ أَن يُرسِلَ بِهِ جِبرِيلَ أَو بَعدَ ذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ قَد أَنزَلَهُ مَكتُوبًا إِلَى بَيتِ العِزَّةِ جُملَةً وَاحِدَةً لَيلَةَ القَدرِ؛ فَقَد كَتَبَهُ كُلَّهُ قَبلَ أَن يُنَزِّلَهُ، قَالَهُ شَيخُ الإِسلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ.

❁ وَقَالَ: وَ اللهُ تَعَالَى يَعلَمُ مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَا يَكُونُ وَلَو كَانَ كَيفَ كَانَ يَكُونُ، وَهُوَ تَعَالَى قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ، وَكَتَبَ أَعمَالَ العِبَادِ قَبلَ أَن يَعمَلُوهَا، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ السَّلَفِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَأمُرُ المَلَائِكَةَ بِكِتَابَتِهَا، بَعدَمَا يَعمَلُونَهَا فَيُقَابِلُ بَينَ الكِتَابَةِ المُتَقَدِّمَةِ عَلَى الوُجُودِ وَالكِتَابَةِ المُتَأَخِّرَةِ عَنهُ فَلَا يَكُونُ بَينَهُمَا تَفَاوُتٌ، هَكَذَا قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا- وَغَيرُهُ مِنَ السَّلَفِ، وَهُوَ حَقٌّ، فَإِذَا كَانَ مَا يَخلُقُهُ بَائِنًا عَنهُ قَد كَتَبَهُ قَبلَ أَن يَخلُقَهُ، فَكَيفَ يُستَبعَدُ أَن يَكُونَ كَلَامُهُ الَّذِي يُرسِلُ بِهِ مَلَائِكَتَهُ مَكتُوبًا قَبلَ أَن يُرسِلَهُم بِهِ.

وَمَن قَالَ أَنَّ جِبرِيلَ أَخَذَ القُرآنَ مِنَ الكِتَابِ، وَلَم يَسمَعهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، كَانَ هَذَا بَاطِلًا مِن وُجُوهٍ، مِنهَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَد كَتَبَ التَّورَاةَ لِمُوسَى عليه السلام بِيَدِهِ، فَبَنُو إِسرَائِيلَ أَخَذُوا كَلَامَ اللهِ مِنَ الكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ اللهُ سُبحَانَهُ فِيهِ، فَإِن كَانَ مُحَمَّدٌ أَخَذَهُ عَن جِبرِيلَ، وَجِبرِيلُ عَنِ الكِتَابِ، كَانَ بَنُو إِسرَائِيلَ أَعلَى مِن مُحَمَّدٍ ﷺ بِدَرَجَةٍ.

وَهَكَذَا مَن قَالَ إِنَّهُ أُلقِيَ إِلَى جِبرِيلَ مَعَانِي القُرآنِ، وَإِنَّ جِبرِيلَ عَبَّرَ عَنهَا بِالكَلَامِ العَرَبِيِّ، فَقَولُهُ يَستَلزِمُ أَن يَكُونَ جِبرِيلُ أُلهِمَهُ إِلهَامًا، وَهَذَا الإِلهَامُ لِآحَادِ المُؤمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المَائِدَة: ١١١]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القَصَص: ٧]، وَقَد أَوحَى إِلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ، فَيَكُونُ هَذَا الوَحيُ الَّذِي يَكُونُ لِآحَادِ الأَنبِيَاءِ وَالمُؤمِنِينَ أَعلَى مِن أَخذِ مُحَمَّدٍ ﷺ القُرآنَ العَظِيمَ عَن جِبرِيلَ عليه السلام؛ لِأَنَّ جِبرِيلَ هُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ لِمُحَمَّدٍ بِمَنزِلَةِ الوَاحِدِ مِن هَؤُلَاءِ؛ وَلِهَذَا زَعَمَ بَعضُ الصُّوفِيَّةِ أَنَّ خَاتَمَ الأَولِيَاءِ أَفضَلُ مِن خَاتَمِ الأَنبِيَاءِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ يَأخُذُ مِن المَعدِنِ الَّذِي يَأخُذُ مِنهُ المَلَكُ الَّذِي يُوحِي بِهِ إِلَى الرَّسُولِ، فَجَعَلَ أَخذَهُ وَأَخذَ المَلَكِ الَّذِي جَاءَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ مِن مَعدِنٍ وَاحِدٍ، وَادَّعَى أَنَّ أَخذَهُ عَنِ اللهِ أَعلَى مِن أَخذِ الرَّسُولِ لِلقُرآنِ، وَمَعلُومٌ أَنَّ هَذَا مِن أَعظَمِ الكُفرِ.

وقَالَ: وَهَذَا القَولُ مِن جِنسِهِ، وَالآيَاتُ القُرآنِيَّةُ تَدُلُّ دَلَالَةً صَرِيحَةً عَلَى أَنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ لَا مِن غَيرِهِ؛ كَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢].

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فُصِّلَت: ١ - ٢].

وَكَذَا قَولُهُ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المَائِدَة: ٦٧].(١)

وَالخُلَاصَةُ: أَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ لَهُ وُجُودَاتٌ أَربَعٌ:-

١-وُجُودٌ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ.

٢-وُجُودٌ فِي أَيدِي السَّفَرَةِ.

(١) «مَجمُوعُ الفَتَاوَى» (١٢/ ١٢٨)، وَانظُر: «لَوَامِعُ الأَنوَارِ البَهِيَّةِ» (١/ ١٦٩)

٣- وُجُودٌ فِي السَّمَاءِ الدُّنيَا.

٤- وُجُودٌ فِي الأَرضِ بِنُزُولِهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وَلَم يَقتَرِنِ النُّزُولُ إِلَّا بِالوُجُودِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ، وَقَد دَلَّ القُرآنُ الكَرِيمُ أَنَّهُ كَانَ قَبلَ نُزُولِهِ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ؛ حَيثُ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البُرُوج: ٢١-٢٢]. وَهَذَا اللَّوحُ المَحفُوظُ هُوَ الكِتَابُ المَكنُونُ الَّذِي قَالَ اللهُ عَنهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الوَاقِعَة: ٧٧-٨٠]

وَالَّذِي عَلَيهِ جُمهُورُ المُفَسِّرِينَ أَنَّ الكِتَابَ المَكنُونَ هُوَ اللَّوحُ المَحفُوظُ، وَاللَّوحُ المَحفُوظُ هُوَ السِّجِلُّ العَامُّ الَّذِي كَتَبَ اللهُ فِيهِ كُلَّ مَا كَانَ وَكُلَّ مَا يَكُونُ.

وَقَد أَخبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأَنعَام: ١١٤]، فَجِبرِيلُ رَسُولُ اللهِ مِنَ المَلَائِكَةِ، جَاءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ البَشَرِ، وَ﴿اللهُ يَصطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾، وَكِلَاهُمَا مُبَلِّغٌ لَهُ.

❁ قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ: «وَهُوَ مَعَ هَذَا كَلَامُ اللهِ لَيسَ لِجِبرِيلَ وَلَا لِمُحَمَّدٍ فِيهِ إِلَّا التَّبلِيغُ وَالأَدَاءُ، كَمَا أَنَّ المُعَلِّمِينَ لَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَالتَّالِينَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ أَو خَارِجَ الصَّلَاةِ لَيسَ لَهُم فِيهِ إِلَّا ذَلِكَ، لَم يُحدِثُوا شَيئًا مِن حُرُوفِهِ وَلَا مَعَانِيهِ».[1]

وَلَا يُلتَفَتُ إِلَى مَا زَعَمَهُ بَعضُ مَن يَهرِفُ بِمَا لَا يَعرِفُ، أَو مَن يَفتَرِي وَيَختَلِقُ، مِن أَنَّ جِبرِيلَ أُوحِيَ إِلَيهِ المَعنَى، وَأَنَّهُ عَبَّرَ بِهَذِهِ الأَلفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى المَعَانِي بِلُغَةِ العَرَبِ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كَذَلِكَ، أَو أَنَّ جِبرِيلَ أَوحَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ المَعنَى، أَو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَبَّرَ عَن هَذِهِ المَعَانِي بِلَفظٍ مِن عِندِهِ، فَهَذَا القَولُ زَعمٌ وَخَرصٌ لَم تَقُم عَلَيهِ أَثَارَةٌ مِن عِلمٍ.

(١) «مَجمُوعُ الفَتَاوَى» (١٢/ ٢٦٠)

وَهُوَ خِلَافُ مَا تَوَاتَرَ عَلَيهِ القُرآنُ وَالسُّنَّةِ، وَانعَقَدَ عَلَيهِ إِجمَاعُ الأُمَّةِ، مِن أَنَّ القُرآنَ لَفظُهُ وَمَعنَاهُ كَلَامُ اللهِ وَمِن عِندِ اللهِ، مِنهُ بَدَأَ وَإِلَيهِ يَعُودُ.

وَهَذَا الزَّعمُ لَا يَقُولُ بِهِ إِلَّا جَاهِلٌ استَولَى الجَهلُ وَالغَفلَةُ عَلَيهِ، أَو زِندِيقٌ قَد يَدُسُّ فِي الدِّينِ وَالعِلمِ مَا لَيسَ مِنهُ.

وَلَا يُغتَرُّ بِوُجُودِهِ فِي بَعضِ الكُتُبِ الإِسلَامِيَّةِ، فَأَغلَبُ الظَّنِّ أَنَّهُ مَدسُوسٌ عَلَى الإِسلَامِ وَالمُسلِمِينَ، هَذَا وَقَد بَلَّغَ النَّبِيُّ ﷺ القُرآنَ الكَرِيمَ مِن غَيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَبدِيلٍ وَلَا تَغيِيرٍ لِشَيءٍ مِنهُ وَلَا كِتمَانٍ لَهُ، وَلَو كَانَ كَاتِمًا شَيئًا -حَاشَاهُ مِن ذَلِكَ- لَكَتَمَ تَبلِيغَ الآيَاتِ الَّتِي عُوتِبَ فِيهَا، وَيَكفِي أَن تَقرَأَ قَولَ الحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المَائِدَة: ٦٧]، وَقَولَهُ: ﴿وَإِذَا تُتلَىٰ عَلَيهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرجُونَ لِقَاءَنَا ائتِ بِقُرآنٍ غَيرِ هَذَآ أَو بَدِّلهُ قُل مَا يَكُونُ لِي أَن أُبَدِّلَهُ مِن تِلقَاءِ نَفسِيٓ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِن عَصَيتُ رَبِّي عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٖ﴾ [يُونُس: ١٥]، وَقَولَهُ ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيهِ وَأَنۡعَمتَ عَلَيهِ أَمۡسِكۡ عَلَيكَ زَوجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب:٣٧] وَقَولَهُ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَينَا بَعضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذنَا مِنهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعنَا مِنهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحَاقَّة: ٤٤-٤٧].(١)

(١) انظر: «المَدخَلُ لِدِرَاسَةِ القُرآنِ الكَرِيمِ» (ص٦٧)، «نُزُولُ القُرآنِ الكَرِيمِ وَتَارِيخُهُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ» (ص٢٥)

❁ فَرعٌ:

إن قَالَ قَائِلٌ: لِمَ لَمْ يَقُل: «إِنَّا أَنزَلنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا»؟ لِأَنَّ إِطلَاقَهُ -يَقصِدُ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١] - يُوهِمُ الإِنزَالَ إِلَى الأَرضِ؟

❁ وَالجَوَابُ:

إِنَّ إِنزَالَهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا كَإِنزَالِهِ إِلَى الأَرضِ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ إِذَا شَرَعَ فِي أَمرٍ أَتَمَّهُ، وَمِثَالُ ذَلِكَ؛ كَغَائِبٍ جَاءَ إِلَى نَوَاحِي البَلَدِ فيُقَالُ عَنهُ: جَاءَ فُلَانٌ.

ولِأَنَّ السَّمَاءَ الدُّنيَا كَالمُشتَرَكِ بَينَنَا وَبَينَ المَلَائِكَةِ؛ فَهِيَ لَهُم مَسكَنٌ وَلَنَا سَقفٌ وَزِينَةٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]؛ فَإِنزَالُهُ القُرآنَ هُنَاكَ كَإِنزَالِهِ هَاهُنَا.(١)

وَإِن حَمَلنَا الآيَةَ عَلَى مَعنَى ابتِدَاءِ إِنزَالِ القُرآنِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَالآيَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَلَا إِشكَالَ فِيهَا.

(١) انظُر: «تَفسِيرُ الرَّازِيِّ = مَفَاتِيحُ الغَيبِ أَوِ التَّفسِيرُ الكَبِيرُ» (٣٢/ ٢٢٩).